

السيد المرتضى

حضوره الفكري في لبنان وما والاها

الشيخ د. جعفر المهاجر — لبنان

(١)

علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ / ٩٦٥ - ١٠٤٤ م) ، الأكثر شهرةً بلقب السيد المرتضى وأقل بلقب آخر هو علم الهدى — هو أحد أبرز أعلام التشيع الإمامي . عاش وعمل في بغداد في الفترة التأسيسية ، التي بدأت بالأعمال الباهرة للشيخ المفيد (٣٣٤-٤١٣ هـ / ٩٣٥ - ١٠٢٢ م) وختمت بالمراجعة الشاملة للشيخ الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ / ٩٩٥ - ١٠٦٧ م) . في هذا القرن من الزمان تم تأصيل ونقل التراث الشيعي الإمامي الذي تراكم أثناء القرنين ونصف القرن مابين (١٠ - ٢٦٠ هـ / ٦٣١ - ٨٧٣ م) من مستوى النصوص المنقولة إلى مستوى النظرية الحاضرة المحفوفة بالبرهان ، سواء على مستوى الأصل / العقيدة ، أم على مستوى الفرع / الشريعة . وذلك إنجازٌ مدهشٌ وصعبٌ قد يصل إلى حد الاستحالة . لما هنالك من مسافةٍ مستحيلةٍ العبور عادةً بين حذية النقل وحرية العقل . ولكن التشيع الإمامي نجح بامتياز على يد أولئك الأبطال الثلاثة في عبورها عبوراً سهلاً خلا من صعوباتٍ حقيقية . ومن إمارات ذلك — مثلاً — أن النقد العقلي الشامل الذي وجهه الشيخ المفيد إلى المنهج النقلي الصّرف للشيخ الصدوق لم يقتض أكثر من كتيب منحه اسماً هو بنفسه ذو مغزى " تصحيح اعتقادات الصدوق " .

(هنا أدعو القارئ الطلعة إلى مقارنة هذه الملاحظة بالنقد العقلي الذي وجهه المعتزلة إلى (أهل الحديث) ، ليرى كيف انتهى إلى نسف أصول هؤلاء الفكرية نسفاً . ومثله لدى أبي حنيفة وفقهه المبني على الرأي ، الذي ينطوي على إزاحة النقل جانباً) .

في تلك الحركة الخلاقة كان السيد المرتضى واسطة عقد أولئك الثلاثة الأبطال .

(٢)

يوم بدأت تلك الحركة في بغداد كان التشيع في ساحل البحر المتوسط ، الممتد من مدينة طرابلس في الشمال إلى ما قبل مدينة صفد في الجنوب ، صُعوداً في وادي الأردن إلى مدينة طبرية فعمّان — ، كان تشيعاً لست أجد له وصفاً أفصح من القول أنه عاطفي . ورثه أهلوه وراثته من أسلافهم المهاجرين من مواطنهم الأصلية في العراق . ومذ ذاك انقطعوا عن كل

مصادر المعرفة وأهمها طبعاً التواصل مع الأئمة المتوالين ، وما قادوا أتباعهم إليه من نهضة شاملة في الفكر بدءاً من الإمام الباقر (عليه السلام) . وصلت إلى إحدى ذراها بقيادة الإمام الصادق (عليه السلام) . ثم تابعت مسيرتها من بعده بما زودها به الأئمة منذ الكاظم (عليه السلام) من حراك اجتماعي – سياسي ، ما يزال من أسرار تاريخنا الحافل ، وإنما نعرفه (أي الحراك) بآثاره التي لاتخفى على العين الخبيرة .

أولئك الشيعة ، بل الشيعة في الشام عموماً ، كانوا غائبين عن كل ما عمل له أئمتهم في العراق وإيران وما وراء النهر (آسية الوسطى) . أما أسباب ذلك الغياب فهي تاريخية مزمنة ، سياسية واجتماعية ، ليست هذه المقالة محل بسطها . ومن هنا اقترحنا تسمية هذا النمط من التشيع بـ (التشيع الشامي) ، لا لشيء إلا لأن المنطقة الشامية كانت أول منازل أولئك المهاجرين القادمين من أنحاء العراق حاملين ثقافتهم معهم مثلما يحدث في أي هجرة . وإلا فإن أكثريتهم اليوم في سورية والأناضول وتركيا وألبانيا والبوسنة ، حيث يعرفون بالعلويين والبيكتاشيين . ومن المعلوم أن أكثر هاتيك الأقطار ليست من الشام .

ومع ذلك فإن أولئك الشيعة كانت لديهم فكرة ما عما يسير فيه إخوانهم في العراق ، وعن العلماء الأفذاذ الذين يقودون المسيرة . طبعاً هم لم يكونوا في ذلك سواء ، ومتى كان الناس من هذه البنى الفوقية سواء ! بحيث أن حدثاً بحجم وفاة الشيخ المفيد كان له صده الفاجع بينهم . عبّر عنه شاعر صوّر الكبير عبد المحسن بن غلبون الصوري (ت : ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م) فقال :

ياله طارق من الحدّثان ألحق ابن النعمان بالنعمان
صيحة أصبحت تُبلِّغ أهل الشام صوت العويل من بغداد
(ديوانه ، ط. بيروت ١٣٧٨ هـ / ١٦١)

(٣)

كان للعمل الرائد الذي قاده بكامل الجدارة الشيخ المفيد في بغداد طاقته الجاذبة . فبفضله وبفضل حلقاته الدراسية صار للشيعة لأول مرة حضوراً غير منكور في معترك بغداد الفكري . الأمر الذي جذب إلى حلقاته العديد من الطامحين القادمين من مختلف الأقطار الدانية والقصية . أعرفهم : السيّد المرتضى ، والشيخ الطوسي ، وعلي بن أحمد النجاشي ، وأحمد بن قدامة ، وعلي بن محمد الفارسي . كلهم ممّن تخرجوا عليه في الفقه وعلم الكلام . وكلهم من ذوي الأثر الباقي . وكان بينهم أيضاً ، فيما يعود لبحثنا ، رجل يحمل على عاتقه عبء إحباطات قرون ، ولكنه يحمل أيضاً مفاجأة رائعة غير متوقعة . ذلك هو الرائد الكبير أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراچكي الطرابلسي (ت : ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م) .

والكراچكي ، لمن ليس يعلم ، هو رائدٌ وصل ما انقطع بين ماسميناه التشيع الشامي ، وبين البيئة الفكرية التي بناها الأئمة في العراق وإيران وما والاها . وذلك إذ شدّ الرّحال في طلب العلم إلى بغداد عن غير سابقة ، فحضر على الشيخ المفيد . ليعود منها إلى وطنه حيث نشر حضوره الباهر ، الذي ما يزال يُثير لدينا أقصى العجب ، في أنحاء الشام : طرابلس ، صيدا ، صور ، طبرية ، الرملة ، وفي مصر أيضاً ، ممّا كان له أبعْدُ الأثر على راب الصلّة بين شقّي التشيع . ولن نخوض في أعمال هذا العالم الجليل والرائد الكبير بأكثر من هذه الإشارة السريعة التي اقتضاها البحث . وما على القارئ اللبيب ، الذي تحرّكه هذه الإشارة إلى طلب التفصيل ، إلا أن يرجع إلى كتابنا (الكراچكي ، عصره ، سيرته ، عالمه الفكري ومُصنّفاته) (ط. قم ، مؤسسة تراث الشيعة ١٤٣٤ هـ .) .

وكما يحدث دائماً بعد كلّ زيادة أصيلة صائبة ، فقد أشرع الكراچكي الباب لمن بعده . ففي السنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، بناءً على رواية عبد الله أفندي في (رياض العلماء ، ط. قم ١٤٠١ هـ : ٣ / ١٤٢) رأينا عبد العزيز بن نحرير الطرابلسي ، الأشهر بكنيته ابن البرّاج ، يسير على الدّرب الذي عبّده الكراچكي ، فيشدّ الرّحال هو أيضاً إلى بغداد ، وليحضر على السيّد المرتضى حتى وفاة الأستاذ سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م . وبعد سنتين قضاهما مع رفيق درسه الشيخ الطوسي رجع إلى وطنه طرابلس ، التي كانت يومذاك إمارة ناهضة يحكمها أمراء بني عمّار المُستنيرين . وفيها أمضى ما بقي له من العُمُر ، قاضياً ومُدّرّساً في مدرستها الكبيرة " دار الحكمة " . وهذا هو مدخلنا لقراءة الحضور الفكري للسيّد المرتضى في لبنان وما والاها ، وفاءً بالعهد الذي عقدناه مع القارئ في العنوان .

(٤)

سننخذ من الأسئلة التي وُجهت إلى السيّد المرتضى من التّبانة و طرابلس وطبرية وجواباته عنها دليلاً على ما كان له من حضورٍ في منطقة البحث . وسأفترض أنّ القارئ اللبيب ، الذي استوعب ما سبرناه من أسرار التاريخ الثقافي للمنطقة ، سيوافقنا الرأي على أن المغزى الرئيس لتوجيه تلك المجموعة الكبيرة من الأسئلة إليه ، واثنان منها أكبر وأهمّ مدينتين شيعيتين في الشام في ذلك الأوان ، هو أنّه كان يُنظرُ إليه من أهلها الشيعة بوصفه مرجعية فكرية — دينية كبرى . فهذا ، فضلاً عن نوع الأسئلة بنفسه ، وما تعكسه من هموم أصحابها الفكرية ، ليذلّ دلالة أكيدة على مستوى فكريّ جيّد لدى السائلين . هو فيما نُرجّح من تأثير حضور وأعمال الكراچكي فيهما . نقول ذلك لأننا نعرفُ بما يكفي المستوى الفقير العاطفي للتشيع الموروث لدى أهليهما من أسلافهم المهاجرين من العراق من قبله ، كما قلنا فيما فات . ولأننا لا نعرفُ مؤثراً غيره في هذا النّطاق .

سنبدأ بالتعريف بتلك الحواضر الشيعية الثلاث .

أما طرابلس فكانت مدينةً على ساحل البحر المتوسط شمال ما يُعرف اليوم بלבنا السياسي . مع ضرورة التنبيه على أن المدينة المعروفة اليوم بالاسم نفسه هي غير تلك التي كاتب أهلها السيد المرتضى بسؤالاتهم . لأن هذه سيهدمها المماليك بعد أن حرروها من الاحتلال الصليبي ، كي يمنعوا أهلها الأصليين الشيعة من العودة إليها بعد أن أخرجهم الصليبيون منها . وقد حققنا في كتابنا (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية) أن أهلها الذين جعلوا منها إمارة ناهضة ، وخرج منهم الكراكي ، هم أصلاً من المهاجرين الهمدانيين الذين باينوا منزلهم في الكوفة بعد السنة ٥١ هـ ونزلوا أنحاء عدة من الشام ، منها جبال الظنيين المعروفة اليوم بالضنية . ومنها تحولوا إلى سكنى طرابلس .

وأما التبانة فيبدو أنها كانت قرية تابعة لطرابلس الأصلية ، نظراً أنها كانت في موقع طرابلس الحالية . بدليل أن في هذه حتى اليوم حي يحمل اسم التبانة .

وأما طبرية فهي نفسها المعروفة بالاسم نفسه في الأرض المحتلة . وأهلها الشيعة هم أيضاً من أهل الكوفة ، وبالتحديد فصيل من الأشعرين الذين باينوها بعد معركة دير الجماجم مع والي الأمويين الحجاج . فلما وقعت الهزيمة خرجوا هاربين من بطشه . واتجه فصيل منهم شرقاً ونزلوا الأرض التي صيروها بلداً حمل اسم قم ، وبنوا مجدها العلمي التليد . في حين اتجه فصيل آخر غرباً ونزلوا طبرية .

(٥)

جمع السيد المرتضى جواباته عن السؤالات الواردة إليه من تلك الحواضر الثلاث في بضع رسائل . منح كلاً منها إسمًا ناشئاً من مصدرها المكاني . ولكنه أغفل ذكر الأسئلة ، إلا في (جوابات المسائل التبانيات) و (جوابات المسائل الطبرية) . متكاملاً فيما يبدو على أن السؤال يمكن معرفته من الجواب عنه . نُشرت جميعها باعتناء السيد مهدي رجائي ، وبإشراف السيد أحمد الحسيني ، ضمن مجموع سمّاه (رسائل الشريف المرتضى) . ولكن السيد الحسيني ، أمتعنا الله بطول بقائه ، وصف العمل على المجموع إجمالاً في مقدمته له بأنه "طبعةٌ مُستعجلة" (رسائل الشريف المرتضى ، ط.قم ١٤٠٥ هـ : ١ / ١٨) . والحق أن سوء النشر حال أحياناً بيننا وبين حسن الاستفادة من مادة المجموع الخصب . ومن ذلك أننا في غير حين لم نتمكن من الجزم هل أن النص الذي بين أيدينا هو للمؤلف أم للمحقق .

المهم أن ما بين أيدينا من رسائل الشريف ، مما يدخل في غرض الدراسة ، أربع

رسائل :

- جوابات الرسائل التبانيات . (رسائل : ١ / ٥ - ٩٦) .
- جوابات المسائل الطبرية . (رسائل : ١ / ١٣٥ - ١٦٦)
- جوابات المسائل الطرابلسيات الثانية (رسائل : ١ / ٣١٠ - ٣٥٦) .

— جوابات المسائل الطرابلسيات الثالثة (رسائل : ١ / ٣٥٩ - ٤٤٣) .

إنّ دراسة هذه الأسئلة وما أجاب السيّد عنها عملٌ هامٌّ جدّاً ، ذلك أنّه :

— يكشفُ لنا حضورَه القويّ والباهر خصوصاً بين شيعتِها في ذلك الأوان . فعندما تُوجّهُ إليه عشراتُ الأسئلة في موضوعاتٍ إشكاليّةٍ بين كلاميّ وأصوليّ وفقهيّ وتفسير ، من أهلِ ثلاثة مُدنٍ تنتشرُ على مسافةٍ شاسعةٍ ، فإنّ أقلَّ ما يدلُّ عليه ذلك أنّه قد نجحَ في أن يكتسبَ لنفسه موقعاً مرجعياً فيها . وذلك أمرٌ يحدثُ لأولِ مرّةٍ في التاريخ الثقافي الشيعيّ ، يُعيدنا إلى تأثيرِ حضورِ الكراجكي فيها . ولكنه يُشيرُ أيضاً إلى الشخصيّة الكارزمية والموقع العالي المتميّز للمسؤول لدى السائلين . خصوصاً إن نحن لاحظنا أنّ أمراً كهذا لم يحصل مع الشيخ المفيد من قبله ، ولا مع الشيخ الطوسي من بعده .

— إنّ خصوصيّة الأسئلة وتنوّعها يكشفُ لنا أنّ الحالة الفكرية للشيعيّة في منطقة البحث كانت أفضلَ بكثيرٍ ممّا نعرف ، أو نظنُّ أنّنا نعرف . أي أنّ هناك جزءاً كبيراً وهامّاً جدّاً من تاريخنا الثقافي قد ضاع تماماً من الذاكرة والتسجيلات التاريخية . وما من شكٍّ عندنا في أنّ السببَ في ضياعها يرجعُ إلى البعثرة السكانيّة الهائلة التي نزلت بالمنطقة ، ومنها تلك المُدن الثلاث ، بالغزو والاحتلال الصليبي لها ، وما نتجَ عنه من تهجيرٍ قسريٍّ للناجين من أهلها . ذلك أنّه من المعلوم أنّ للذاكرة الجمعيّة للناس ارتباطاً حدّيّاً بالأرض — الوطن الذي نمت فيه الذاكرة . فإذا هم انقطعوا عنه فإنهم ينقطعون عن ذاكرتهم أيضاً ، ليبدأوا بناء ذاكرةٍ جديدة في موطنهم الجديد . أمّا الذاكرة الضائعة فإنها تُنسى بوصفها تاريخاً موعياً ، ولا يبقى منها في أحسن الأحوال إلا صورةٌ غامضة تُسمّيها أسطورة .

— إنّ السيّد إذ اعتنى بحفظ وتسجيل أجوبته بنحو رسائل ، ثم طرَحها للاستتساخ بحيث وصلت إلينا ، قد درَجَ على تقليدٍ معمولٍ به بين العلماء من قبله ومن بعده . إذن ، فعمله من هذه الوجهة ، لا خصوصيّة فيه ، ولا دلالة له تدعونا إلى البحث عنها . ولكننا لدى التأمل لانفسي ، وهو العارف ولا ريب بخصوصيّة وضع التشيع في المنطقة الشاميّة إجمالاً ، أنّه أراد أن يُسجَلَ أيضاً بالتّضمّن ، ونظراً لخصوصيّة الأسئلة وتنوّعها ، الثّقلة النوعيّة للتشيع في المنطقة ، من الموروث إلى المُشارك في الإشكاليّات العالقة في بيئته الفكرية .

(٦)

تلك هي المغازي الثلاثة المُستفادة من الرسائل الأربعة إجمالاً . لكنّ دراستها دراسةً وافيةً يقتضي بحثاً مُسهّباً أوسع بكثيرٍ من مقالة . وعليه فإننا فيما بقي من البحث سنعمدُ إلى فهرسة موضوعات كلّ رسالة رسالة . وذلك فيما نرى وافٍ بغرضنا منها ، ومؤدياً لحقّ القارئ بمقدار ما وعدناه به في العنوان .

١ - جوابات المسائل التَّبَانِيَّات

وهي الوحيدة التي اقتبس السيد في مقدّمته جزءاً من سؤال السائل . وهو تلميذٌ مجهولٌ من تلاميذه . وهي من (فُصول) عشرة ، كل (فصل) مُخصَّصٌ لمُناقشة حُجّةٍ من احتجاجات الداهب إلى حُجّة خبر الواحد ، بالإضافة إلى إثبات حُجّة الإجماع . ومن المعلوم أنّ السيد المرتضى هو من القائلين بانحصار الحُجّة في معرفة الأحكام الشرعيّة في الخبر المتواتر وفي الإجماع . وما ندري هل أنّ صفة (فصل) من الأصل ، أم هي إضافةٌ من الناشر .

٢ - جوابات المسائل الطَّبَرِيَّة

السائل مجهول ، وإنّما ذُكِرَ بنحو المبني للمجهول . وحتى هذه الصيغة اضطربت جرّاء خطأ إملائيّ فيما يبدو : " سأل الشريف أحسن الله توفيقه " بدلاً عن : سأل الشريف . . . الخ. وهي عبارة عن أحد عشر سؤال وجواباتها . عُنوانت كلّ منها في النشرة بـ " مسألة " : " المسألة الأولى " ، " المسألة الثانية " . . . الخ. وجميعها تدور على قضايا كلاميّة . باستثناء المسألتين التاسعة والعاشر اللتين دارتا على مسألتين فقهيتين .

٣ - جوابات المسائل الطرابلسيّات الثانية

وهي اثنتا عشرة مسألة ، تدور على إشكاليّات مُتنوّعة ، منها الكلامي ، ومنها الفقهي وغير ذلك . وفي بعض الأسئلة ما قد يدلُّ على أنّ السائل من غير الشيعة الإماميّة . والأمرُ بحاجة إلى مزيدٍ تفحّصٍ وتدقيق . وعلى كلّ حال فإنّ مُستوى الأسئلة يدلُّ على أنّ صاحبها ليس بذاك لجهة نضجه العلمي .

٤ - جوابات المسائل الطرابلسيّات الثالثة

وهي ثلاثة وعشرون مسألة ، تدور كسابقتها على إشكاليّات مُتنوّعة . ولكنّها تفوقُ سابقتها من حيث المُستوى .

(٧)

أخيراً أجدُ من الواجب عليّ أن أوكِّدَ على الفائدة المُتوخّاة من مُتابعة البحث ، خصوصاً أنّه بالإضافة إلى ما وقفنا عليه من رسائل ثمة رسالتين غير منشورتين : جوابات المسائل الطرابلسيّة الأولى وجوابات المسائل الصيداويّة . ذلك أنّ هذه الرسائل بمجموعها تنطوي على معلومات هامة ومُتنوّعة ، يُمكن أن تُساهم في إضاءة جوانب هامة من تاريخنا الثقافي .